مظاهر الحياة الاجتماعية للمهاجرين الورقليين الى تونس خلال الفترة الاستعمارية 1883 – 1954م

أ.د. رضوان شافو – جامعة الوادي (الجزائر)
redhouane-chafou@univ-eloued.dz

تاريخ الاستلام :2019/09/16 ؛ تاريخ القبول : 2019/10/03 ؛ تاريخ النشر:2020/01/30

ملخص:
عقب استقرار الفرنسيين بمنطقة ورقلة (جنوب الجزائر) سنة 1883م عملت السلطة الاستعمارية على دراسة السكان والمكان وجمع مختلف المعلومات حول المنطقة خدمة للسياسة الاستعمارية التي انتهجتها فرنسا في ذلك الحين ،وذلك تطبيقا للمقولة الشهيرة يجب معرفة الناس للسيطرة عليهم وقيادتهم ، وذلك بهدف تسهيل عملية التحكم في هذا المجتمع من الداخل ولإبعاد أية مقاومة شعبية من شأنها أن تعرقل المشاريع الاستعمارية الفرنسية بالمنطقة، غير أن السياسة الاقتصادية التي فرضتها الإدارة الاستعمارية على أهالي المنطقة أثرت عليهم اجتماعيا، مما دفع بالكثير من الورقليين الى التفكير في اللجوء والهجرة نحو تونس مع نهاية القرن 19م رغم محاولات فرنسا لتعطيل رخص الهجرة ،حيث تشير التقارير الفرنسية الى ان عدد المهاجرين الورقليين كان قد وصل سنة 1921 إلى 1127 أي ما يعادل 27% ، ليصل سنة 1939م إلى 2000 شخص أي ما يعادل 39.5 % وهي اكبر نسبة عرفتها الهجرة الورقلية. ومن هذا المنطلق سأحاول في هذه الورقة العلمية تقديم دراسة نقدية لبعض الوثائق الارشيفية حول الاعراش الورقلية المهاجرة الى تونس خلال الفترة الاستعمارية، من اجل معرفة حياتهم المعيشية ومشاكلهم الاجتماعية، وكيفية تعاملهم مع السلطة الاستعمارية في ظل نظام الحماية الفرنسية، وهذا بناءً بعض الوثائق الموجودة في الأرشيف الوطني التونسي ، التي تدل على أهمية التواجد الورقلي بتونس، لاسيما ملفات "شيوخ الورقلية".

الكلمات المفتاحية : المهاجرين ; الصحراء الجزائرية ; الاستعمار الفرنسي ; الاعراش ; الحماية الفرنسية

مقدمة:

عقب استقرار الفرنسيين بمنطقة ورقلة (جنوب الجزائر) سنة 1883م عملت السلطة الاستعمارية على دراسة السكان والمكان وجمع مختلف المعلومات حول المنطقة خدمة للسياسة الاستعمارية التي انتهجتها فرنسا في ذلك الحين ،وذلك تطبيقا للمقولة الشهيرة يجب معرفة الناس للسيطرة عليهم وقيادتهم ، وذلك بهدف تسهيل عملية التحكم في هذا المجتمع من الداخل ولإبعاد أية مقاومة شعبية من شأنها أن تعرقل المشاريع الاستعمارية الفرنسية بالمنطقة، غير أن السياسة الاقتصادية التي فرضتها الإدارة الاستعمارية على أهالي المنطقة أثرت عليهم اجتماعيا، مما دفع بالكثير من الورقليين الى التفكير في اللجوء والهجرة نحو تونس مع نهاية القرن 19م رغم محاولات فرنسا لتعطيل رخص الهجرة ،حيث تشير التقارير الفرنسية الى ان عدد المهاجرين الورقليين كان قد وصل سنة 1921 إلى 1127 أي ما يعادل 27% ، ليصل سنة 1939م إلى 2000 شخص أي ما يعادل 39.5 % وهي اكبر نسبة عرفتها الهجرة الورقلية.

ومن هذا المنطلق سأحاول في هذه الورقة العلمية تقديم دراسة نقدية لبعض الوثائق الارشيفية حول الاعراش الورقلية المهاجرة الى تونس خلال الفترة الاستعمارية، من اجل معرفة حياتهم المعيشية ومشاكلهم الاجتماعية،

وكيفية تعاملهم مع السلطة الاستعمارية في ظل نظام الحماية الفرنسية، وهذا بناءً بعض الوثائق الموجودة في الأرشيف الوطني التونسي ، التي تدل على أهمية التواجد الورقلي بتونس، لاسيما ملفات "شيوخ الورقلية".

اشكالية الدراسة: ان الوثائق الأرشيفية التي اطلعنا عليها من خلال الارشيف الوطني التونسي كشفت لنا الكثير من الحقائق التاريخية حول الاعراش الورقلية وحياتهم الاجتماعية والسياسية، غير انه كان علينا معالجة هذه الوثائق من خلال طرح اشكالية رئيسية تعالج محتوى ما جاء في الوثائق الأرشيفية، مبنية على مجموعة من التساؤلات، وهي كالاتي: ما هي الاسباب والدوافع الحقيقية للهجرة الورقلية نحو تونس؟ وما هي اهم مراحل هجرتهم الى تونس؟ وما هي اهم مظاهر الحياة الاجتماعية لمختلف الاعراش الورقلية التي استوطنت تونس خلال الفترة الاستعمارية؟

اهمية الدراسة:

إن تتبع مظاهر الحياة الاجتماعية للأعراش الورقلية المستوطنة بتونس خلال فترة نظام الحماية الفرنسية، وكذا مظاهر تعاملهم مع السياسة الاستعمارية الفرنسية له أهمية كبرى في الدراسات التاريخية الجزائرية المعاصرة، لان مثل هذه الدراسات تقدم لنا المادة الأولية التي يمكن أن نستخلص منها الخطوط العريضة للتطور التاريخي لمراحل الهجرة الورقلية الى تونس، كما ان هذه الدراسة تكتسي أهمية من حيث سد الفراغ في جوانب عديدة من الأحداث والوقائع التاريخية التي حدثت للأعراش الورقلية.

اهداف الدراسة:

- تسليط الضوء على بعض الجوانب من التاريخ الاجتماعي لمنطقة ورقلة.
- التعرف على النشاطات الاقتصادية والاجتماعية التي كانت تمارسها الاعراش الورقلية في تونس.
- ابراز طبيعة العلاقات بين الجزائر وتونس خلال فترة الاحتلال الفرنسي، واهم مظاهر التواصل الاجتماعي بين المنطقتين.

منهج الدراسة:

- المنهج التاريخي : استخدمناه في عرض وتحليل مختلف المشاكل الاجتماعية والصراعات السياسية التي كانت تحدث بين الاعراش الورقلية.

- المنهج الوصفي: اعتمدناه في استعراض ووصف الوقائع التاريخية، لكون أن الوثائق احتوت على جملة من المظاهر الاجتماعية خلال مرحلة الاستقرار بتونس اثناء الحماية الفرنسية.

الدراسات السابقة:

تاريخ منطقة ورقلة لم يحض بالدراسة الأكاديمية من طرف الباحثين إلاَّ في السنوات الأخيرة، على الرغم من ان الدراسات الاستعمارية تناولته بشكل كبير ومن عدة جوانب، ولعل اهتمام الجهات الوصية والمراكز البحثية في الجزائر كل لها دور كبير في دفع الباحثين بالاهتمام بالتاريخ المحلي الذي يعتبر تربة خصبة للأبحاث التاريخية، ومن هذا المنطلق، كنت اول باحث جزائري يتناول اكاديميا تاريخ ورقلة خلال الفترة الاستعمارية في كتاب موسوم بـ " **الجنوب الشرقي الجزائري خلال العهد الاستعماري: ورقلة أنموذجا 1844-1962**"،وقد تطرقت في هذا الكتاب الى موضوع هجرة الورقليين الى تونس لكن بشكل مختصر ودون التعمق فيه.

وفي سياق موضوع الهجرة الجزائرية الى تونس، فقد تناول الأستاذ يوسف جفالي احصائيات الهجرة الورقلية الى تونس، وذلك من خلال مذكرته الاكاديمية الموسومة بـ "**الجالية الجزائرية بجهة الكاف (1881-1929)**، وهي ذات الإشارة نجدها عند المؤرخ التونسي عبد الكريم الماجري في كتابه الموسوم بـ " **هجرة الجزائريين والطرابلسية والمغاربة الجوانة الى تونس 1831-1937**"، وهي عبارة عن دراسة تاريخية للجاليات المغاربية بتونس وخصوصياتها الاجتماعية والقانونية، وقد خص الاعراش الورقلية بتونس من خلال عنصر التنظيم الإداري للجزائريين بمدينة تونس، حيث تطرق الى الصراع حول المشيخة بين الجماعة الورقلية، وفك ارتباطهم مع البايات الحسنيين.

اما بخصوص الدراسات الأجنبية التي اشارت الى الهجرة الورقلية، فإننا نجد كتاب دوني بيلي Denys Pillet بعنوان:Repères pour l'histoire de Ouargla 1872-1992 ،وهو عبارة عن كرنولوجيا لأحداث عسكرية وسياسية واقتصادية واجتماعية وقعت بورقلة منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر(19م) إلى أواخر القرن العشرين(20م)،حيث استقاها الكاتب من خلال معايشته لبعض الأحداث حينما كان يشرف على الكنيسة بورقلة، وللإشارة فإن هذا الكتاب قد تمت قام ترجمته إلى العربية من طرف السيد علي ايدير،وفي ذات السياق نجد الدراسة الاكاديمية التي قام بها الدكتور جمال حقي، والموسومة بـ " les Algériens originaires du sud dans la ville de Tunis pendent l'époque coloniale (1881-1956),(mozabite, Soufis, Ouarglias) "،حيث خصص فيها فصلا كاملا حول الجالية الورقلية وحياتهم الاجتماعية بتونس.

تقسيم الدراسة : من أجل معالجة إشكالية الدراسة تم تقسيم محتواها إلى المحاور التالية :

اولا/ التعريف بمنطقة ورقلة

ثانيا/ دوافع هجرة الورقلية الى تونس

ثالثا/ مظاهر الحياة الاجتماعية للجالية الورقلية بتونس.

رابعا/ الورقلية وعلاقاتهم بالسلطة المحلية والفرنسية.

خامسا/ الورقلية والحركة الوطنية التونسية.

اولا/ التعريف بمنطقة ورقلة:

تقع منطقة ورقلة ضمن نطاق الصحراء الكبرى الممتدة من الأطلس الصحراوي جنوبا وأطراف الهضاب العليا، وحسب الجغرافيين ورقلة تقع في قلب الصحراء المنخفضة المعروفة بمياهها الجوفية الارتوازية القريبة من السطح، وبالتحديد في الحوض الشرقي الكبير الرابط بين الحدود التونسية والجزائرية، والذي يمتد على طول 800.000 كلم2 ويقدر مخزونه 1.800, 000 مليون م3 ، وينخفض سطحه إلى 35م عند شط ملغيغ الواقع بين مدينة بسكرة ومدينة الوادى بالجزائر وشط الجريد بتونس بالقرب من مدينة قفصة ،ويبلغ ارتفاعه من 12 – 15 م عن سطح البحر، وهي المنطقة التي أرادت فرنسا ربطها بالبحر الأبيض المتوسط وإدخال مياه البحر إلى الحدود الجزائرية عبر منخفضات تونس(بوشامة،ص103).

ومن ناحية الحدود الإدارية ؛ ورقلة كمدينة حاليا، تبعد عن الجزائر العاصمة بـ 800 كلم^2 ، ويحدها من الشرق الحدود التونسية، ومن الجنوب الغربي ايليزي وتمنراست، ومن الشمال الشرقي وادي ريغ وبسكرة ووالوادي، ومن الشمال الغربي غرداية والجلفة والمنيعة ، وهي تتربع على مساحة تقدر بـ 163233 كلم^2.

وبخصوص أصول السكان وتركيبتهم الاجتماعية فتكاد تجمع معظم المصادر الإسلامية أن السكان الأصليين لمنطقة ورقلة هم بربر، لكونهم ينتمون لإحدى القبائل البربرية الزناتية وهم بنو وركلا، إذ يقول ابن خلدون : " بنو وركلا هؤلاء أحد بطون زناتة كما تقدم من ولد فرني بن جانا.."(ابن خلدون، ص ص:106،107) ،ويتعرض صاحب نزهة المشتاق لأصل البربر أنهم يعودون إلى "جانا" وهو أبو زناتة المغرب "، كما يذكر أن جانا انتهوا إلى أقصى المغرب فتفرقت هناك ونزلت معهم قبائل البربر بما فيهم بنو ورقلان.."(الادريسي،1994، ص 117).

اما التشكيلات الاجتماعية بورقلة فقد ارتبط تواجدها بتواجد بعض القبائل الهلالية بالمنطقة، حيث كانت قبائل رياح دائبة الحركة والتنقل من الجريد إلى ورقلة "، زيادة على استقرار هذه القبائل، فقد استطاعت أن تندمج في الوسط البشري وتحدث تواصل اجتماعي مع سكان ورقلة، إضافة إلى قبائل المعقل السالفة الذكر ، فقد استقرت قبائل عربية أخرى على مراحل وخلقت نسيجا اجتماعيا جديدا ،مثل : الشعانبة الذين استقروا بالمنطقة خلال القرن 16م، والمخادمة الذين جاؤوا إلى المنطقة مند القرن 12م(PROHUZA ;1960 :13) ، وسعيد عتبة الذي توطنوا في انقوسة خلال القرن 13م، بالإضافة إلى توافد قبائل أخرى واستقرارها بالمنطقة خلال القرون اللاحقة.

زيادة على ذلك أكدت لنا معظم المصادر التاريخية والجغرافية على عراقة وقدم منطقة ورقلة مند العصور القديمة، لكونها كانت آهلة بالسكان الأوائل وهم القرمنتيون، لتعرف بعدها عبر فترات لاحقة –حسب الظروف والتحولات الاجتماعية والاقتصادية– تطورا سكانيا وعمرانيا نسجته مختلف الأجناس التي عمّرت المنطقة، وخلقت

تواصلا اجتماعيا فيما بينها إلى غاية المنتصف الأول من القرن العشرين، وما هو مهم للإشارة وما تؤكده بعض الحقائق التاريخية أن منطقة ورقلة كانت تتمتع بنوع من الخصوصية والاستقلالية السياسية خاصة مند استقرار القبائل البربرية والعربية بها، ويتجلى هذا أكثر في عهد الدولة الرستمية (777-908م)، وما كان يربطها بهذه الدولة من علاقات هو اعترافها بالتبعية الاسمية لها، غير انه بعد سقوط هذه الدولة سنة 908م فقدت منطقة ورقلة استقرارها واستقلالها نتيجة الحملات العسكرية ضدها للقضاء على جميع طموحاتها السياسية والعسكرية في المناطق الصحراوية، بداية بالفاطميين وإلى غاية الحملات التأديبية العثمانية والاحتلال الفرنسي سنة 1854م.

ثانيا/ دوافع هجرة الورقلية الى تونس:

الكثير من الباحثين المهتمين بتاريخ الجنوب الجزائري يرجعون بداية الهجرة الورقلية الى الحقبة الاستعمارية الفرنسية، وفي اعتقادي هي مغالطة تاريخية، لكون ان الهجرة الورقلية نحو مختلف المناطق سواء نحو مناطق الشمال الجزائري او خارج حدود الوطن تعود الى حقبة الدويلات الاسلامية ببلاد المغرب وخاصة في عهد الأمير الحفصي أبو زكريا ، بحكم وصول الحكم والنفود الحفصي الى مناطق الجنوب الشرقي الجزائري ابتداءً من القرن الثالث عشر إلى الخامس عشر ميلادي ، وذلك في إطار النشاط التجاري المتعلق بتجارة الذهب والعبيد، لكون أن ورقلة كانت بوابة رئيسية للتجارة مع بلاد السودان، وفي ذلك يقول ابن خلدون :" لما استقل الأمير أبو زكريا بإفريقية وخلع طاعة بني عبد المؤمن، صرف عزمه أولا إلى مدافعة يحي بن غانية عن نواحي اماله، فشرده عن جهات طرابلس والزاب ووركلا. . واختط بوركلا المسجد لما نزل في أتباعه، وانزل بالأطراف عساكره وعماله لمنعها دونه ..." (ابن خلدون،ج6،ص337.) ، وهي ذات الإشارة عند دوني بيلي Denys Pillet،وذكرت مادلين روفيلواز بيرقول M.R.Brigol أن السلطان الحفصي أعاد ترميم قصر ورقلة الذي حطمه ابن غانية والذي كان يتربع على مساحة ثلاثين هكتار(Brigol,1975 :1-67) ،والمتتبع لتاريخ الانساب لبعض سكان ورقلة في تونس سيجد الكثير من العائلات التي استقرت منذ ذلك الوقت.

ولعل تونس لها من الخصوصية والاهتمام عند سكان ورقلة لجعلها وجهة هامة للهجرة اليها، وذلك بحكم القرب الجغرافي والمحاذاة الحدودية لإقليم الجريد بالجنوب التونسي، وسهولة التنقل ، وعدم اكتراث السلطات التونسية لهذه الهجرات، ورغم محاولات فرنسا التحكم في حركة تنقل الجزائريين عبر الحدود لتونس من خلال قرارها الصادر في7فيفري1898 (جفالي،1993،ص ص:33-50)، إلا أن هذا لم يمنع سكان ورقلة من الهجرة نحو تونس من هروبا من التسلط الاستعماري والبحث عن العمل، وقد شملت ثلاثة أعراش وهم : (بني سسين ، وبني ابراهيم، وبني واقين)، وهذا وفقا للروايات الشفوية، والتي تقدر تقدير نسبتهم بحوالي 4.7 % من مجموع الجزائريين المتواجدين بتونس، غير ان وثائق الارشيف التونسي ذكرت خمسة الاعراش، فزيادة على ما ذكر سالفا من اعرش ورقلة نجد عرش الشطوطة، وعرش تماسين،وهو ما يؤكده المؤرخ التونسي عبد الكريم الماجري، غير انه يذكر بأن: "عرش الشطوطة لم يأت ذكره بصفة متواترة باستثناء بعض الاشارات، ويكاد يكون غائبا عن

الاحداث التي شهدتها جماعة الورقلية، الا انه كان موجودا بصفة فعلية ويشرف على شؤونه شاوش مثل بقية عروش الورقلية"(الماجري، 2010، ص511.)، بينما نجد دوني بيلي Denys Pillet يذكر اعراش اخرى قائلاً بانه قد هاجر حوالي 1500 من قصر ورقلة، و80 من قرية الشط،و14 من قرية لعجاجة، و5 من قرية سيد خويلد(دوني بيلي، 1995،ص 22.).

كما تجدر الاشارة الى ان هجرة الوراقلة عبر الحدود كان يتم مشيا على الأقدام تارة، وركوبا على الحيوانات أهمها الجمال، وتدوم الرحلة من 20 إلى 25 يوما ، ويتخذون طريق متلوي ثم قفصة، ثم صفاقس وصولاً إلى تونس(Haggui,2004 :25).ومن المهن التي اشتغلوها، عمال في بيوت الأغنياء، وعمال في الحمامات والمطاعم،حراس، ونوادل في المقاهي(A.N.T .B 278.Document73, N° 5) ، وكان استقرارهم وتمركزهم بتونس العاصمة وبالتحديد في سوق العطارين ، وسوق الكبابجية.

ويعتقد العقيد الفريد لوشاتلي le chatelier أن الثلث من رجال ورقلة خلال نهاية القرن التاسع عشر الميلادي هاجروا إلى تونس للبحث عن العمل ومنهم 1500 من سكان القصر، و80 من سكان الشط، و14 من سكان لعجاجة، و5 من سكان سيدي خويلد وتشير التقارير التونسية أن عدد المهاجرين الورقليين سنة 1921م وصل إلى 1127 أي ما يعادل 27%، وفي سنة 1926م ارتفع العدد إلى 1343 أي ما يعادل 34%، ليصل سنة 1939م إلى 2000 شخص أي ما يعادل 39.5 % وهي اكبر نسبة عرفتها الهجرة الورقلية(Haggui,2004 :25)، ومما سبق ذكره يمكننا حصر اسباب الهجرة الورقلية في النقاط التالية:

- ✓ **الشعور بالمهانة والمذّلة** التي أصبح يعيشها الأهالي جراء الفقر والفاقة، والتي أضحت هاجسا يؤرق كل جزائري، فكانت الدول المجاورة بلدان هجرة لكونها تقع على الحدود، وبالتالي تسهل عملية التنقل خفية دون وجود عراقيل من طرف السلطة الاستعمارية.

- ✓ **الهروب من البطش والتنكيل**، والهروب من القوانين الجائرة مثل: الهروب من الخدمة العسكرية، ومحاولة الأهالي التملص منها.

- ✓ **واقع الممارسة الاضطهادية ضد الأهالي** انطلاقا من سلب الأراضي ومنحها إلى المعمرين نتيجة الضرائب التي أثقلت كاهلهم، أو سياسة الإعانة بالقروض المستعملة بطريقة ربوية مما يجعل الأهالي يفقدون ممتلكاتهم، وفيما يخص الهجرة الثالثة التي شهدتها ورقلة سنة 1920م كانت بسب تسلط الحكام المحليين ونوابهم من القياد الذين يخضعون لسلطتهم مباشرة، الذين اضطهدوا الأهالي وطبقوا عليهم الإجراءات التعسفية من خلال فرض الغرامات المباشرة لأسباب تافهة خاصة فيما يتعلق بالحصول على رخص التنقل، ولقد سُجلت حالتين بورقلة سنة 1914م(Lutaud,1914 :162.)، وقد زادت هذه الغرامات القياد والحكام المحليين ثراءً.

- ✓ **الأزمات الاقتصادية والكوارث البيئية والطبيعية** (زوزو،1985،ص ص:35 – 46)،وعليه فإن هذه السياسة التي دأبت فرنسا على انتهاجها في الجزائر منذ 1871م، قد حققت أهدافها إلى درجة أن الجزائريين أصبحوا يعيشون في شبه مجاعة ، فعلى سبيل المثال فيما يخص الهجرة الثانية التي شهدتها ورقلة أواخر القرن التاسع عشر الميلادي ، فقد كانت بسبب عدة أمراض مزمنة منها: وباء "حمى المستنقعات" الذي انتشر في الفترة ما بين منتصف سبتمبر ومنتصف أكتوبر مما تسبب في وفاة أكثر من 400 شخص اغلبهم من النساء والأطفال، هذا بالإضافة إلى وباء الجدري الذي تسبب هو الآخر في وفاة حوالي 200 شخص(دوني بيلي، 1995،ص 24-26.) وفي سنة 1909م وقع بؤس وقحط حيث قل محصول التمور، وارتفعت أسعار القمح. هذا بالإضافة إلى الأزمة الاقتصادية التي حدثت سنة 1920م، والتي أدت إلى حدوث مجاعة أخرى نتجت عن الجفاف الذي أصاب المنطقة ونقص مياه الآبار الارتوازية، والارتفاع الفاحش في أسعار الحبوب، وتقلص عدد المواشي بسبب موتها من العطش، زيادة على انتشار الأوبئة ومنها " وباء التيفس" الذي تسبب في هلاك عدة أشخاص(دوني بيلي، 1995،ص 49.).

ثالثا/ مظاهر الحياة الاجتماعية للجالية الورقلية بتونس:

1) قيادة موحدة لأعراش الوراقلة:

على الرغم من تنوع الاعراش الورقلية المهاجرة الى تونس، والتي كان يعين على قيادتها شخص يسمى "بالشاوش"، يشرف على تسيير شؤونها، الا ان كافة الاعراش كانت تخضع لقيادة موحدة عن طريقا الشيخ الكبير(المقدم) المشرف على كافة الاعراش، والذي يتم تعيينه عن طريق الانتخاب من طرف اهالي الاعراش، او التعين من طرف المراقب المدني(الماجري، 2010، ص513.) ، ويجب ان تتوفر شروط معينة في المرشح للقيادة (الصلاح وحب الخير، العفة، الاسلام، الورع والتقوى)، هذا ما تؤكده رسالة موجهة من اعراش ورقلة الى الحاكم الفرنسي في 28 فيفري 1886:(اشهد ان 35 نفر من اهل ورقلة ومن جماعة سوق الكبابجية داخل مدينة تونس بان المكرم محمد بن فتوح بن الحاج بوبكر الوقيني من القبيل بانه من اهل الخير والسداد والصلاح والعفة والديانة والنجاح، واتفقوا على كلمة واحدة ورضوا به بان يكون مقدما عليهم يسعى في مصالحهم وينظر في امورهم عضا عن المرحوم المكرم صالح بن السيد السيسيني) (الماجري، 2010، ص513.).

2) التضامن والتكافل بين الوراقلة:

المتفحص لمختلف الوثائق الأرشيفية التي تناولت الحياة الاجتماعية لأعراش ورقلة بتونس، سيتجلى له ذلك التضامن والتكافل فيما بينهم، حتى وان كانت تقع بينهم من حين الى اخر الكثير من الصراعات والخلافات، غير

ان ظروف الهجرة ومعاناتها كانت تقتضي عليهم التآلف والتآزر فيما بينهم، ويتضح ذلك من خلال المشاهد الاتية:

- ✓انشاء دار لكل عرش مثل (دار عرش بني وقين بسوق الكبابجية)، دار جماعة بيني براهيم قرب تربة الباي، (دار الورقلية بسوق اللفة يسكنها فقراء الورقلية) (الماجري، 2010، ص517-518.).
- ✓انشأ عرش بني براهيم دار يقيم بها الوافدون الجدد والمرضى ويغسل بها الميت قبل تشيع جثمانه الى المقبرة.
- ✓كل اعراش الورقلية تتحمل المسؤولية لإبعاد الضرر او الخطر، فمثلا تتكفل الاعراش الورقلية عند حصول أية مخالفة ارتكبها احد الورقلية بإصلاح ما أفسده، فإن سرقت حانوت او محل وكان حارسها ورقلي فإن اعراش الورقلية هي التي تسدد قيمة المسروق لصاحب الحانوت(A.N.T .B 278.Document 73, N°01)

3) الصراعات والنزاعات بين الاعراش حول السلطة:

إن المتتبع للحالة السياسية في منطقة ورقلة وضواحيها عقب احتلال الجزائر في سنة 1830م، سيلاحظ تلك الحروب والصراعات المحلية بين مختلف القبائل والاعراش والأسر الحاكمة، وخاصة حول السلطة ومواطن الكلاء والرعي والزراعة ومنابع المياه ،ويبدوا ان هذه الصراعات والخلافات المحلية قد انتقلت مع الاعراش الورقلية المهاجرة الى تونس خلال النص الثاني من القرن التاسع عشر الميلادي، حيث شهدت تونس طيلة تواجد الورقليين صراعات حول تمثيل الورقليين لدى السلطات التونسية، فقد جاء في رسالة مؤرخة في 12 شعبان 1302هـ/1881م من الشاوش الحاج محمد كاتب ديوان الورقلية إلى القنصل الفرنسي طالبا منه تفويض بتعين عبد القادر مقدما اكبر على عروش الورقلية(A.N.T .B 278.Document 73, N°14) ،وفي رسالة أخرى بتاريخ جمادى الثانية 1306هـ/1885م تتضمن اتفاق أعراش ورقلة بالحاضرة التونسية على تعيين محمد بن قدور بن صالح السيسيني مقدماً على أعراش ورقلة(A.N.T .B 278.Document 73, N°15).

هذا بالإضافة إلى أن فئة من الورقليين كانوا يعيشون حياة بؤس وشقاء من جراء البطالة، مما دفع بهم إلى ارتكاب عدة مخالفات كالسرقة، فقد ذكرت إحدى الرسائل الموجهة من الحاكم العام بتونس بيرج Berge إلى احمد بن قدور شيخ الورقلية والمؤرخة في 22 أفريل 1900، أن المصالح القضائية قد حكمت على المدعو محمد بلحاج احمد بثلاثة أشهر سجنا وذلك بسبب سرقته (قندورة) من السوق.(A.N.T .B 278.Document 73, N°26)

4) امتهان الحرف والاعمال البسيطة الحرة ذات العلاقة بالمجتمع:

ان غالبية المهاجرين من ورقلة نحو تونس كانوا من العائلات الفقيرة والبسيطة، وبالتالي كان همهم الوحيد الحصول على عمل من اجل ضمان استقرارهم بتونس، وتجنبا للوقوع في مختلف الآفات الاجتماعية ، وبالتالي فقد دلَّت الكثير من الوثائق الأرشيفية على مختلف المهن التي اشتغلتها الاعراش الورقلية، ومنها عمال في بيوت الأغنياء، وعمال في المطاعم والحمامات،وقد كان الورقليون الذين يمارسوا مهنة الحمامات يطلق عليهم اسم (فرناقجي)، لكون ان دورهم كان يقتصر على تسخين الحمامات. (الماجري، 2010، ص558)

هذا بالإضافة الى مهنة الحراسة(عساس) في الاسواق والمؤسسات الرسمية، ونوادل في المقاهي(A.N.T .B 278.Document73, N° 5) ، وأصدق مثال على ذلك الرسالة التي بعث بها احمد بن الحاج الورقلي إلى الوزير الأكبر بتونس مصطفى الكعاك، يطلب رخصة إعادة فتح مقهى كان يعمل فيه بعض الورقليين بعدما تم غلقها، ولأهمية هذه الرسالة نذكر نصها فيما يلي:

« وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

جناب الصدر الهمام العماد الأفخم أمير الأمراء سيدي مصطفى الكعاك المولى الوزير الأكبر أيده الله.أما بعد السلام الألف برفيع المقام.فالمعروض على السيادة انه توجد بالحاضرة بزنقة الورقلية عدد خمسة من نهج سوف لفة دار تعرف بدار الورقلية يسكنها فقراء الورقلية، وكانت بها مقهى برخصة رسمية، ثم وقع سحب الرخصة المذكورة من طرف السلطة ذات النظر منذ اثني عشر عاما تقريبا، وغلق القهوة المذكورة، وحيث أن ذلك مضر بالسكان القاطنين بالدار المذكورة، إذ هم بعدما كانوا يجتمعون هناك لتناول القهوة والشاي وقضاء أوقات الفراغ. أصبحوا مضطرين للتفرق بأماكن مختلفة، فالمرغوب صدور الإذن لإدارة مصالح الأمير بتجديد الرخصة المشار إليها باسمي، وبذلك يمكن لي الحصول على كمية من القهوة والتاي لاستهلاك ساكني الدار المذكورة. ولجنابكم أتم الشكر والامتنان مع مراسيم التعظيم والإجلال. من صاحب المطلب احمد بن الحاج بن محمد باش شاوش بالقسم الأول من الوزارة الكبرى. وكتب في 15 مارس 1948م. احمد بن الحاج ».

رابعا/ الورقلية وعلاقاتهم بالسلطة المحلية والفرنسية:

ان المتتبع لتاريخ الهجرة الجنوبية الجزائرية الى تونس سيتجلى اول مظهر لعلاقة الوراقلة المهاجرين مع السلطة التونسية خلال فترة السبعينات من القرن التاسع عشر الميلادي ، وذلك من خلال لجوء انصار المقاومة الشعبية في الجنوب الشرقي الجزائري بقيادة كلا من الشريف محمد بن عبدالله وناصر بن شهرة الى الحدود التونسية لتجديد المقاومة، فحسب تقرير فرنسي يذكر أن علي باي بعد إلقاء القبض على الشريف محمد بن عبد الله اهتم بملاحقة ناصر بن شهرة إلى الحدود التونسية، حيث قام بشن حملة على أربعة قرى تونسية كانت تأوي ناصر بن شهرة، والتي أسفرت عن 62 قتيل من السكان، وحجز 185 بندقية، و400 خروف، و60 من الإبل، و8 من الخيل، بالإضافة إلى كمية من محصول التمور(Rapport à l'empereur, le 10/10/1868. A.O.M. 11H37).

ومن خلال بعض الوثائق الارشيفية نجد ان غالبية الانصار كانوا من مختلف اعراش ورقلة وما جاورها، لكون ان هذه الأخيرة كانت مقراً لثورة الشريف محمد بن عبدالله ضد الاستعمار الفرنسي، ومن هذا المنطلق فإن الاحداث التي نتجت عن تتبع المقاومين من سكان ورقلة، دفعت ببعض الاعراش الورقلية الى الهجرة نحو تونس أنذآك، حيث بلغ عددهم حسب احصائيات القنصل الفرنسي بتونس رسطون سنة 1876 حوالي 800 ورقلي.((الماجري، 2010، ص129)

ورغم ضغوطات السلطة الاستعمارية على السلطة التونسية في منع اللاجئين المقاومين الجزائريين او ابعادهم من الأراضي التونسية، إلا ان معظم القبائل التونسية المجاورة للحدود الجزائرية كانت تستقبل الجزائريين بكل حفاوة بحكم الروابط الدينية، ولم تستطع السلطة المحلية التونسية التدخل لمنع ذلك، لكون ان الباي التونسي كانت له هناك سلطة اسمية فقط حسب راي قنصل فرنسا بتونس، وبالتالي فإن أية قبيلة تونسية احتضنت قبيلة جزائرية لاجئة، فإنه من الصعب على الباي التدخل واجبارها على العودة من حيث أتت او نزع سلاحها (الماجري، 2010، ص126)،غير ان موقف البايات التونسيين قد تغير من حركة المهاجرين الجزائريين، وذلك في اطار الضغوطات الفرنسية على تونس ،حيث تم إقرار مراسيم وقوانين تمنع دخول الجزائريين الى تونس بطريقة غير شرعية وقانونية، وتُحدد تنقل المهاجرين عبر الحدود.

وبموجب القوانين والمراسيم الفرنسية المحددة لحركة الهجرة، فإن الجزائريين المغادرين للجزائر بصفة شرعية، وبنيَّة العودة الى الجزائر فيعتبرون محميون من طرف فرنسا، ومن هذا المنطلق يبدوا ان السلطة المحلية التونسية لم تكن لها السيادة على الاعراش الورقلية رغم تواجدهم على الأراضي التونسية، واعتبار الورقلية من رعايا الدولة الفرنسية، على خلاف الجاليات المغاربية الأخرى التي بقت ضمن رعايا الباي التونسي، ويتجلى ذلك من خلال رد الوزارة التونسية في مسالة خلاف حول تعيين مقدم لعروش الورقلية المؤرخ في 31 اوت 1989م(A.N.T .B 278.Document73, N° 12)

ولعل عدم خضوع الاعراش الورقلية للسلطة المحلية التونسية اعطاهم نوع من الحرية الزائدة بصفتهم رعايا فرنسيين، مما نتج عنه العديد من الصراعات والتجاوزات الاجتماعية، الامر الذي دفع بسلطة الحماية الفرنسية الى مراجعة التنظيم الإداري والقانوني لمختلف الاعراش الجزائرية المتواجدة بالبلاد التونسية، حيث أحدثت منذ سنة 1919م مشيخات للأعراش الجزائرية، وبالتالي يمكن نختصر مظاهر العلاقة بين الاعراش الورقلية والسلطة الفرنسية في النقاط التالية:

- يتم تعيين شيخ او مقدم الورقلية عن طريق المراقب المدني، ونتيجة للصراعات بين الاعراش اصبحت السلطة الاستعمارية هي من تختار شيح الورقلية وفقاً لمعاييرها وبما يخدم مصالحها.

- تمزيق وحدة الصف بين الاعراش الورقلية في اطار سياسة التفرقة بين الاعراش
- الاحتماء بالفرنسين وحمايتهم من كل المخالفات القانونية في حالة القيام بجرم ضد الفرنسيين(بني براهيم، تماسين) (الماجري، 2010، ص520)

خامسا/ الورقلية وتأثيرات الحركة الوطنية التونسية.

قبل انطلاق الثورة الجزائرية في اول نوفمبر 1954، كانت ورقلة ضمن نطاق الحكم العسكري الذي فرضته السلطة الاستعمارية الفرنسية على مناطق الجنوب منذ منتصف القرن التاسع عشر الميلادي، ويبدوا ان هذا السبب يعتبر احد العوامل الرئيسة وراء تزايد عدد المهاجرين الورقلين نحو تونس، وخصوصا فئة الشباب التي تأثرت بالتطورات السياسية والاصلاحية التي شهدتها الحركة الوطنية الجزائرية بمختلف تشكيلاتها السياسية والاصلاحية.

وبالمقارنة مع اسهامات بعض الجزائريين الجنوبيين في الحركة الوطنية التونسية وخصوصا المزابين في الحركة الفكرية والاصلاحية والسوافة في الحركة النقابية ، فان الوثائق الارشيفية التي اطلعنا علينا لم تشر الى وجود اية علاقة سياسية او فكرية تربط الورقليين بالحركة الوطنية التونسية، وهذا قد يعود في نظرنا الى قلة عدد مثقفيهم، وعدم تفاعلهم مع الواقع السياسي التونسي آنذاك الا القليل منهم، وكانوا بعيدين عن مختلف فعالياتها الثقافية والعلمية.

غير انه تجدر الاشارة الى ان جامع الزيتونة وفروعه بتونس احتضن الشباب الورقلي مثله مثل بقية المهاجرين الجزائريين، حيث بلغ عدد الطلبة الورقليين الزيتونيين ما بين 1940-1953 عشرون طالبا(جامع الزيتونة،1894-1916) ، وفي هذا السياق يبدوا انه كان لجمعية الطلبة الجزائريين الزيتونيين الصحراويين بتونس دور كبير في تكوين أبناء الصحراء تكوينا سياسيا وفكريا ومنهم على سبيل الذكر لا الحصر : ميلودي الطاهر بن عمار، محمد بن ثابت ،وحميد بن حمودة الورقلي ،الشهيد الحاج سيد روحو الحاج، وسيد روحو محمد الصالح، ولعلام عبد القادر،وبن محسن محمد، وعيساوي عبد القادر الذين ،جلول بن جلول بن مبارك ،كلهم درسوا بتونس بدءً بالمدرسة الخلدونية، ثم جامع الزيتونة إلى أن تخرجوا منه، زيادة إلى عبد القادر الأخضر السائحي الذي درس المرحلتين الابتدائية والثانوية بجامع الزيتونة وفروعه، وكذا المجاهد البشيري البشير الذي كان طالبا بالمدرسة الخلدونية وتوقف عن الدراسة سنة 1957م، تلبية لنداء الواجب الوطني(شافو،2013،ص275)

ولعل اول اشارة مباشرة لعلاقة الورقليين بالحركة الوطنية التونسية تتجلى في انخراط اشخاص في بعض الجمعيات الدينية التونسية، ومنهم السيد بكير بن الحاج عيسى بن بكير بن يعقوب، وفي هذا الصدد ذكر تقرير لحاكم الجزائر العام مرسل إلى المقيم العام تونس في نهاية 1920م :« أن بعض الجزائريين كانوا ملتفين حول جمعية دينية تعمل على الدعاية لاستقلال القطرين التونسي والجزائري معا، وهم كلهم ثقة بان كل المستعمرات الفرنسية ستنال استقلالها عن طريق هذه الجمعية»(شترة،ص361).

ويتجلى مظهر ثاني كذلك في موقف سياسي كان قد تبناه المناضل ميلودي الطاهر بن عمار الذي كان يدرس بجامع الزيتونة بتونس آنذاك، حين شاهد الكتابات الحائطية التي تندد بالسياسة الفرنسية في تونس، والمطالبة

بخروجها من الأراضي التونسية، حيث قال :" والله لو علمنا أن الكتابة على الجدران تخرج فرنسا، لكنا قد كتبنا بالشواقير، واعلموا أن فرنسا لن تغادر أرضينا سوى بالاتحاد وقوة السلاح".(نجاح،1998،ص47)

وهناك مظهر ثالث اخر يتجلى في عضوية المجاهد عبد القادر حجاج في الحركة النقابية التونسية ، وذلك ضمن الاتحاد النقابي لعمال تونس (USTT)، وقد لعب عبد القادر دورا بارزا في النضال ضد الاستغلال الاستعماري، وبث الوعي في الوسط العمالي، وكان كلما تعرض شخص من الاعراش الورقلية للاستغلال من طرف الفرنسيين الا ودافع عنه، ونظرا للنضال الذي تميز به عبد القادر حجاج الورقلي دفع بالسلطة الاستعمارية الى القاء القبض عليه رفقة بعض المناضلين التونسيين، واعتقلته لمدة يومين على ذمة التحقيق، ليصدر في حقه الطرد والنفي إلى بلده الجزائر عائدا إلى ورقلة سنة 1954م، وآنذاك بدأ ينشط ضمن الخلايا المدنية الثورية التي بدأت تتشكل في المنطقة(حجاج،2005) ، ويبدوا ان ظروف العمل الصعبة هي التي دفعت بالنقابي عبد القادر حجاج الى الانخراط في العمل النقابي.

خلاصة :

ان الظروف الاجتماعية والاقتصادية التي دفعت ببعض العائلات من اعراش ورقلة الى الهجرة نحو تونس بقدر ما كان امرا سلبيا، الا ان استقرار الوراقلة بتونس كانت له انعكاسات ايجابية على المجتمع التونسي، على الرغم من ان السلطة الفرنسية بتونس لعبت دورا كبيرا في احداث انشقاقات وصدمات بين اعراش الورقلية، تطبيقا لسياسة فرق تسد، الا ان الاعراش الورقلية استطاعت ان تصمد امام مختلف التحديات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية، وان تتجاوز ذلك بتقديم خدمات انسانية للمجتمع التونسي من خلال الاعمال المهنية البسيطة الحرة، زيادة على ذلك استطاعت ان تحقق عدة مكاسب وثروات بتونس سهلت من مهمة استقبال الوافدين الجدد من ورقلة، مقدمة لهم الدعم المادي والمعنوي خلال الاربعينات والخمسينات من القرن العشرين.

وما يمكن قوله في الأخير هو أن هذا البحث يعتبر مساهمة في إبراز جوانب مهمة من تاريخ العلاقات الاجتماعية بين الجزائريين والتونسيين وعلى الخصوص الهجرة الورقلية الى تونس ومظاهر حياتهم الاجتماعية، غير انه ستبقى بعض الجوانب الاخرى في المجال الثقافي والسياسي بحاجة الى دراسات تاريخية مستقبلية.

ملاحق: (نماذج لوثائق ارشيفية حول الاعراش الورقلية بتونس)

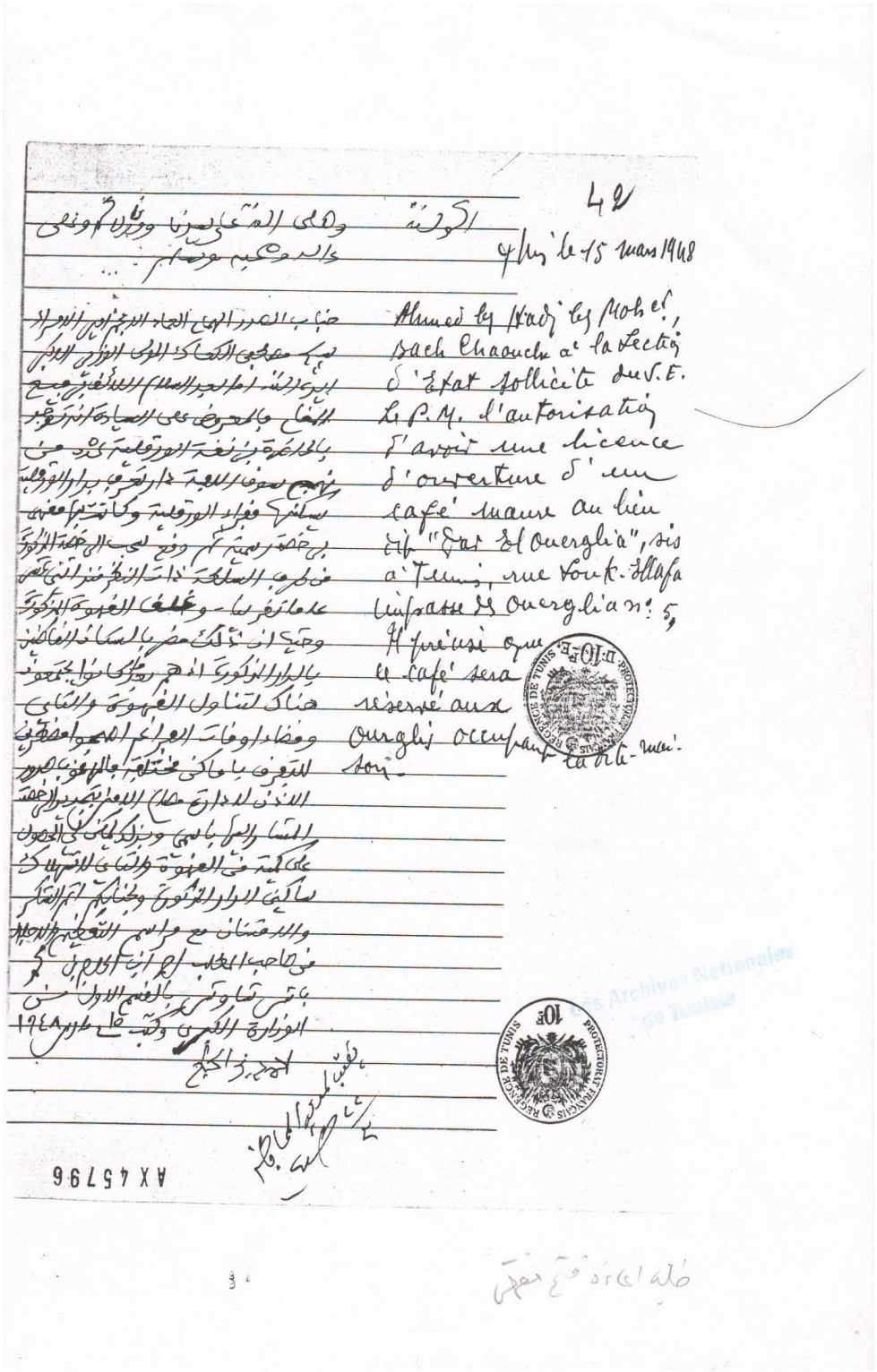

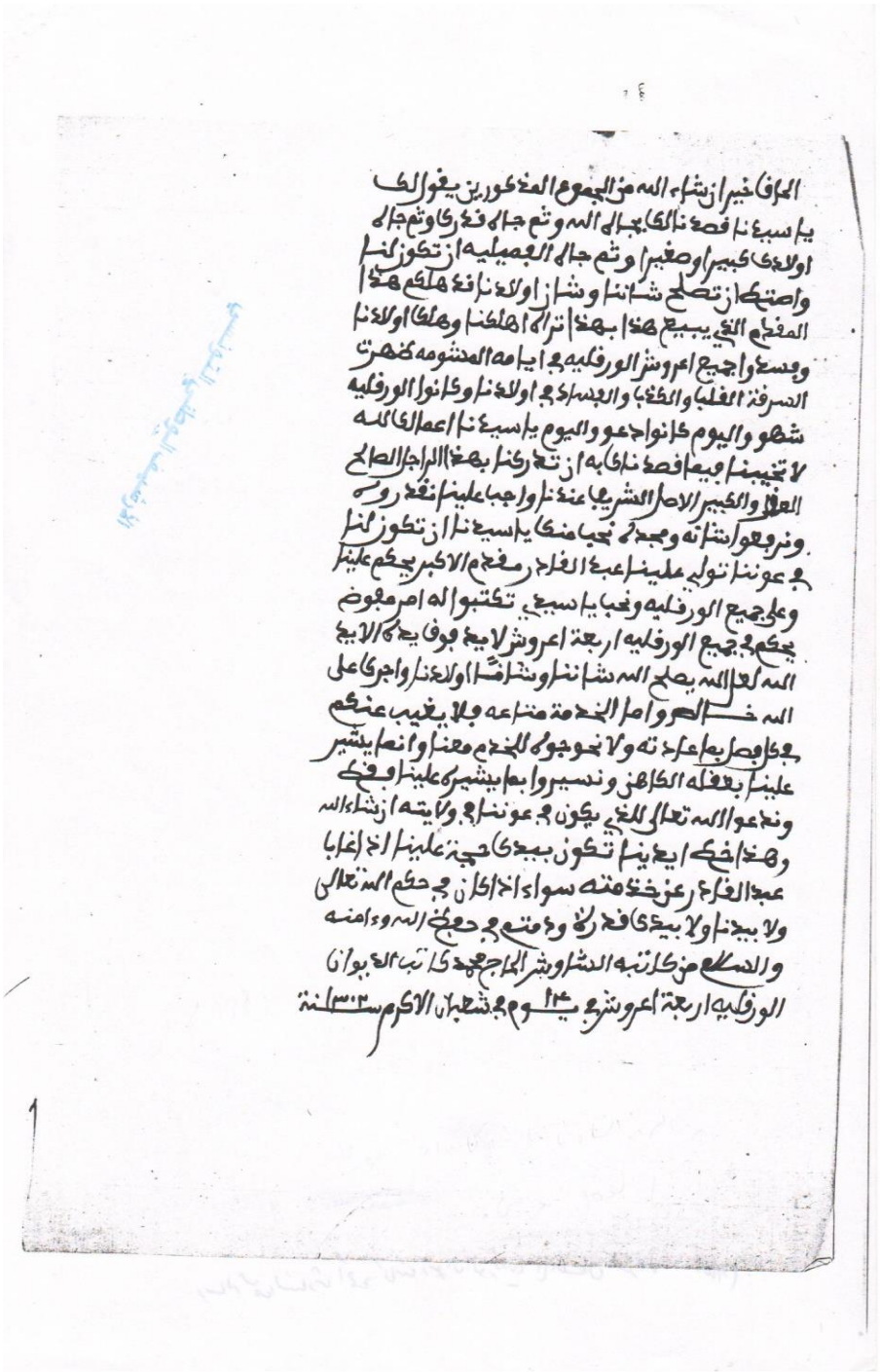

- 233 -

12, Rue Bir Hassine TUNIS

A MONSIEUR LE SECRETAIRE GENERAL DU GOUVERNEMENT TUNISIEN

SECTION D'ETAT
ARRIVÉE
le -4 JUIN 1948
N° 206
E 278

Monsieur le Secretaire Général,

Au nom de Ahmed Ben Mansour, Chaouche à la Direction des Finances, chaouche des Beni Sissine, Mohamed Ben Elkateb, chaouche à la Direction des Finances, Abdel Kader Ben Baâafou, chaouche à la Direction des Finances, Belkhir Ben Baboussan gardien, Ali Ben Amor gardien chez M.Rey, Hadj Mohamed Ben El Hadj El Arbi cafetier et au nom de tous les Ouarglia de la fraction des Beni Sissine en résidence à Tunis, j'ai l'honneur de porter les faits suivants à votre connaissance:

Il y a quatre ou cinq mois à la suite d'une querelle intervenue entre un membre de la fraction des Ouarglia Beni Brahim et un membre de la fraction des Ouarglia Beni Sissine, il y eut échange copieux de coups et blessures.

Après cette rixe les notables des deux fractions intervinrent et firent la paix entre les combattants.

Le treize Mai mil neuf cent huit Mohamed Ben Amer ouargli des Beni Sissine se trouvait dans une pièce qu'il a louée dans le fondouk des Souks des Parfumeurs. Les Beni Brahim, sans aucune excuse, sans motif, sans provocation se précipitèrent sur lui au nombre d'une douzaine le battirent à coups de matraques et s'en allèrent. Mohamed sortit pour se faire panser, un gendarme le rencontra Rue de l'Eglise et, le voyant ensanglanté, lui demanda qui l'avait mis dans cet état. Mohamed ne voulut pas répondre ni désigner ses aggresseurs, le gendarme le mena au Commissariat d'où il fût dirigé sur l'Hôpital Sadiki. Là on le pansa, on le renvoya chez lui et il garda la chambre pendant huit jours. Il est actuellement en service à la Marsa.

Le lendemain un autre Beni Sissine, Mohamed Ben Moussa, fut assailli par les Beni Brahim qui lui portèrent des coups violents sur la tête et sur le bras.

1948

قائمة المصادر والمراجع:

اولا/ العربية:

1) ا بن خلدون، **تاريخ ابن خلدون**، لبنان، دار الكتب العلمية،ج7 ،ط1،(د،ت).

2) أبو القاسم سعد الله ، **تاريخ الجزائر الثقافي 1830–1954** ،ج6،بيروت ،دار الغرب الاسلامي.

3) أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله الشريف الإدريسي، **نزهة المشتاق في اختراق الآفاق**، تح :ربينا تشي و آخرون،مصر ،مكتبة الثقافة الدينية ،مج1994،1.

4) بوشامة ليديا ، **وحدة جغرافية الجزائر والمغرب العربي** ، مطبوعة لمجموعة المحاضرات الواردة في مقرر مقياس جغرافية الجزائر والمغرب العربي.

5) دوني بيلي،**معالم لتاريخ ورقلة 1872–1992**، تر: علي ايدر،ط2، 1995.

6) عبد الحميد ،**الهجرة ودورها في الحركة الوطنية الجزائرية بين الحربين (1919 –1939)**، الجزائر، م.و.ك ، ط2، 1985، ص ص: 35 – 46.

7) عبد الكريم الماجري، **هجرة الجزائريين والطرابلسية والمغاربة الجوانة الى تونس 1831–1937**، تونس، الشركة التونسية للنشر،ط1، 2010.

8) يوسف جفالي ، **الجالية الجزائرية بجهة الكاف (1881–1929)**، رسالة الكفاءة في البحث، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، تونس، السنة الجامعية (92–93).

ثانيا/ الاجنبية:

1) Haggui Jamel : **les Algériens originaires du sud dans la ville de Tunis pendent l'époque coloniale (1881-1956),(mozabite, Soufis, Ouarglias),** mémoire de DEA Université de monouba, Tunis, Année Universitaire 2003-2004 ,p 25
2) M.R.Brigol ,**Le Pays de Ouargla**, Publication du Département Géographie de l'Université de Paris-Sorbonne, Paris,1975,p1.. p 67
3) PROHUZA, **Les Mekhadma :(Etude sur l'évolution d'un groupe humain dans le Sahara Moderne).**ouvrage publié sous les auspices de l'OCRS,paris,1960,p 13

ثالثا/ الوثائق الارشيفية:

1) دفتر تأسيس تلامذة جامع الزيتونة الجدد عدد 5630 السنة (1894–1919)،

2) دفتر إحصائية تلامذة جامع الزيتونة وفروعه عدد5660 السنة(1915–1916)

3) دفتر إحصائية تلامذة جامع الزيتونة وفروعه عدد 5634 السنة (1916- 1917)

1) A.N.T .B 278.Document 73, N°01
2) A.N.T .B 278.Document73, N° 5
3) A.N.T .B 278.Document 73, N°12
4) A.N.T .B 278.Document 73, N°14
5) A.N.T .B 278.Document 73, N°15
6) A.N.T .B 278.Document 73, N°26